الباب الأول

ومضات قبل الهجرة

الفصل الأول:
التنبؤ بالبعثة المحمدية

إذا كان الله تبارك وتعالي قد أمرنا في قرآنه المجيد بأن نعمل عقولنا في تدبر آياته الكريمة، فإنه منطقيا وترتيبا على ذلك لابد أن يكون لهذا الدين العظيم القيم لمن لا ينطق عن الهوى وحمل لواء خاتم رسالاته ومشقة الدعوة إليه، حتى عم مشارق الأرض ومغاربها بشارات بهما في كتب الله عز وجل قد جرت على لسان أنبيائه ورسله عليهم السلام في رسالاتهم التي سبقت زمان هذه الرسالة الجامعة الخاتمة:

ولقد عرضنا لهذه البشارات سواء التي تتعلق بمكان بزوغ نور الرسالة المحمدية للدعوة إلى الإسلام، أو التي تتعلق بزمان بزوغ نورها وشخص المصطفي لحمل لوائها محمد صلى الله عليه وسلم بشيء من السرد التفصيلي في كتابنا: " من دلائل عظمة الرسالة المحمدية والبشارات بها في كتب أهل الكتاب ".. ولكن قد يجدر بنا أيضا في هذا المقام أن نعرض بشيء من الإيجاز لواحدة أو اثنتين من هذه البشارات خاصة التي تتعلق منها بمكان بزوغ نور الرسالة المحمدية أي مكة المكرمة:

1ـ نور في جبال مكة:

جاء في العهد القديم في سفر التثنية 2\23 من " الكتاب المقدس Version James King توماس للنشر نيويورك ".

"... جاء الرب من سيناء وأشرق لهم في سعير، وتلألأ من

جبل فاران وأتي معه عشرة آلاف من القديسين وعن يمينه نار شريعة لهم... ".

وهذه النبوءة متضمنة **للنبوات الثلاث**: نبوة موسى، ونبوة عيسي ونبوة محمد صلوات الله وسلامه عليهم فمجيئه من سيناء تعني هنا تكليمه لموسي، وتكليفه بالرسالة والمقصود بسيناء هنا هو مكان الجبل الذي كلم الله عز وجل عليه موسى عليه السلام، وإشراقه من سعير المقصود به ظهور رسالة المسيح عليه السلام من بيت المقدس وسعير قرية هناك إلى اليوم أما بشارة التلألؤ من جبل فاران هي بشارة لا تحمل الجدل على الإطلاق ببزوغ نور الرسالة المحمدية من جبل فاران، ففاران هنا هي مكة المكرمة، والمقصود بالجبل هنا جبل حراء بمكة المكرمة (فاران) الموجود بأعلاه غار حراء الذي كان يتحنث فيه النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد جاء في سفر التكوين 20/21 - 21عن إسماعيل عليه السلام " وسكن في برية فاران وأخذت له أمه زوجة من مصر ".

ومن المشهور والمتعارف عليه تاريخيا أن إسماعيل سكن بجوار البيت الحرام أو ما يسمي ببرية فاران وقيل: إنها سميت فاران بالتشديد على الراء - بمعنى هاربان - والمقصود بهما هاجر وإسماعيل عليهما السلام.

وقد قال المؤرخ جيروم واللاهوتي يوسيبيوس (أن فاران بلد عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق من إيلة).

فإذا ما عرف ذلك فإنه ترتيبا عليه كان لابد من خروج نبي من مكة - وقد يجدر هنا أيضا استخدام النبوة لكلمة (تلألؤ) مما يشير إلى

مدي عظمة رسالة هذه النبوة ومن سيحمل لواءها وسعة انتشارها.

وقد جاء ما يشير إلى ذلك ويؤكد عليه في صحيفة حبقوق 2/2 (والله جاء من تيماء والقدوس من جبل فاران مجده على السماوات والأرض امتلأت بحمده) والمراد بالقدوس هنا هو الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إذ هي إحدي صفاته لكثرة تطهره - كما أن الوحي نزل عليه في غار حراء وهو جبل من جبال مكة (فاران) وخرج منه قدوسا ليحمل أعظم الرسالات إلى الإنسانية جمعاء، كما لا يفوتنا هنا أن كلمة حمده هنا ذات مغزي هام ودلالة واضحة، ذلك أن اسم محمد وهو لم يكن متداولا في الجزيرة العربية عند بزوغ البعثة المحمدية - يعني حرفيا الممدوح.

ولقد كان اليهود قبل ظهور الرسالة المحمدية يعلمون ذلك تماما حتى أن يهود المدينة وصل بهم الأمر إلى أنهم كانوا يهددون الأوس والخزرج بقرب خروج نبي يقتلهم قتل إرم وعاد ولكنهم كانوا يأملون أن يخرج منهم، وليس من ذرية إسماعيل عليه السلام.

أما لفظ: (وأتي معه عشرة آلاف من القديسين) فهذا من أعجب العجائب الصارخة بالدلالة والوضوح البين - فالمقصود هنا بلا ريب وبلا أدني مجال للشك، أو الموثق تاريخيا، إنه لعشر خلون من شهر رمضان المبارك في السنة الثامنة الهجرية - غادر رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم المدينة متجها إلى فتح مكة في عشرة آلاف من الصحابة رضوان الله عليهم، وهو الفتح الأعظم الذي أعز الله فيه دينه وجنده ورسوله الأمين واستنقذ به بلده وبيته الحرام من أيدي الكفار والمشركين، وطهرهما من عبادة الأصنام، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجا، ولفظ

(وعن يمينه نار شرعة لهم) جلي بأن هذا النبي العظيم القادم معه شريعة جديدة ناسخة ومطهرة مشرقة سيحترق بها وفيها كل غث أو باطل أو محرف أو منحرف أو خارج عن الناموس، وأنه بالإضافة إلى كونه بشيرا لأتباعه الموحدين بالله، المؤمنين برسالته ودعوته، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بجنات تجري من تحتها الأنهار عرضها السماوات والأرض، وفيهن من البهجة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، إلخ، فأنه يكون نذيرا أيضا لخصوم دعوته من الكفار والمشركين والملاحدة ومرتكبي الفواحش و الطغاة.. من عذاب نار جهنم المستعرة التي وقودها الناس والحجارة.

وفي تراجم أخرى (والشريعة المشعة بيده اليمني) كما هو الحال في نص النسخة المنقحة المعتمدة التي نشرتها جمعية الكتاب المقدس البريطانية، ونحن نميل أكثر إلى هذه الترجمة - حيث أن الشريعة الإسلامية فعلاً وواقعاً ومنهجاً، هي أقوم وأكمل وأتم الشرائع على وجه الأرض منذ آدم عليه السلام وإلى أن تقوم الساعة.

2- وعد لبلاد العرب بنزول الوحي في مكة وأن سيكون له مجد عظيم:

ففي سنة 701 ق. م في أرض السبي، في بابل تنبأ النبي إشعياء بالإسلام دينا ودولة، وبمكان ظهوره ففي سفر إشعياء في العهد القديم يتضح تماما بما لا يدع مجالا للشك أو التأويل البشارة بمكة المكرمة ومجدها العظيم المنتظر: (لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنها قيدار لتترنم، سكان الجبال ليهتفوا ويمجدوا السيد وليعلنوا حمده في الجزر، السيد سيخرج جبارا، ويثير الحمية كرجل حرب

ويهتف ويدوي ويسيطر على أعدائه) إشعياء - 13:42/11.

وخلاصة هذه البشارة بما يتضح منها جليا أن الديار التي سكنها قيدار الجد الأكبر للعرب - وأولاده وذريته سيعلو شأنها ويرفع صوتها بالتكبير، والأذان والشهادة لنبوة محمد ورسالته صلى الله عليه وسلم، وستترنم ديار العرب بذلك ويهتف بذلك من ورائها وبعدها، من آمن بذلك من الإنسانية جمعاء سواء كانوا سكان جبال، أم سكان جزر ممجدين الله تبارك وتعالى ورسالة رسوله - وأن هذا الرسول الذي سيخرج إلى العالم من ديار قيدار وذريته سيكون فارس حرب مقدام يثير الحمية يهتف مدويا بتكبير الله ووحدانيته واحديته والدعوة إلى رسالته وسيقوى ويسيطر على أعداء دعوته ومن المتعارف عليه والمستقر والثابت تاريخيا أنه لم يخرج إلينا من الديار التي سكنها قيدار وأحفاده من العرب من ادعى الرسالة والنبوة وهتفت به ومجدته ومدحته الإنسانية (وليعلنوا حمده في الجزر) بأن قرنت اسمه ورسالته بالشهادة، بوحدانية الله: (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) آناء الليل وأطراف النهار، وهزم أعداء دعوته سوى محمد صلى الله عليه وسلم وأن أول ظهور دعوته، ورسالته، كان في ديار مكة المكرمة التي سكنها الأكبر قيدار.

ولقد كان بجانب اليهود الذين ينتظرون قبل البعثة المحمدية ظهور نبي في بلاد العرب، يأملون أن يخرج منهم، وليس من ذرية إسماعيل عليه السلام البعض من أهل الجاهلية أيضاً، المتنبئين بظهور نبي من بلاد العرب في ذلك الزمان وكان من بينهم أمية ابن أبي الصلت من أهل مكة ولكن العجيب أنه كان يطمع في تلك النبوة وبذلك لم يؤمن بالرسول حينما ظهر فعلا ظنا منه وكما يظن كثير

من الجاهلين أن النبوة مركز دنيوي يحسد عليه ناسيا أو غافلا بأنها تكليف لروح طاهرة لكي يقضي حياته الدنيوية معلقا بين جذب قوتي السماء والأرض.

كما يحكي بأنه في أحد أيام مكة القائظة، وقفت فتاة تدعى سودة بنت زهراء حينما مرت أمامها جماعة من بنات قريش وإذا بها تقول فجأة بصوت عال بنبوءة غير منتظرة: (أن إحدى هذه البنات ستحمل رجلا ينذر البشر وعندما مرت آمنة بنت وهب، نظرت إليها، وقالت: ها هي التي ستحمله، وبالفعل تحققت النبوءة وتزوجت آمنة بنت وهب من عبد الله بن عبد المطلب وولدت محمدا في فجر يوم الاثنين الموافق 12 من ربيع الأول الموافق 20 من يونيو عام 571 م.

تري كيف عرفت سودة بهذه النبوءة؟ أغلب الظن أن هذه الفتاة كانت وسيطة روحية ملهمة، سواء عرفت هي ذلك أم لم تعرف؟

ومن الشائع أيضاً أن في ليلة ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم رأي أحد كبار أحبار اليهود في المدينة، وكان على علم بمطالع النجوم دليلا على وقوع حدث هام، فقام يصيح فيمن حوله وفي طرقات المدينة قائلا: طلع نجم أحمد، طلع نجم أحمد، وبالفعل ولد ذلك النجم الجديد في مكة وسمع اليهود به ولكنهم لم يشاهدوه فعلا، إلا بعد ثلاث وخمسين سنة من تلك النبؤة الفلكية حينما دخل المدينة وأتخذ منها مركزا لإشعاعه.

وقيل: أن جده عبد المطلب والذي كان لا يؤمن في دخيلة نفسه بالأصنام التي كانت تملأ الكعبة التي هو مشرف عليها - يري في مناماته بأنه سيكون من أحفاده من يكون محمودًا في السماء

والأرض، فلما سئل عن السبب في تسمية حفيده بمحمد، وهو اسم غير متداول بين العرب قال:

" أردت أن يكون محمودا في السماء والأرض لخلقه " وعندما كان محمد صلى الله عليه وسلم جنينًا في بطن أمه مات أبوه عبد الله في المدينة، فحزنت زوجته آمنة عليه حزنا عميقا شديدا ولكن كان يسري عنها من هذا الحزن رؤيتها في منامها نورا يخرج منها يغطي كل ما حولها، حتى قصور الشام وأنها أمرت بتسميته محمداً، إذ تحدثنا كتب السيرة، بأن السيدة آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت تحدث أنها أتيت - حين حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم - فقيل لها:

(... إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سميه محمداً).

وأنها رأت - حين حملت به - أنه خرج منها نوراً، رأت به قصور بصري من أرض الشام. (61/ صحيح السيرة / صحابة).

وقال ابن إسحاق: " فلما وضعته أمه صلى الله عليه وسلم أرسلت إلى جده عبد المطلب أنه قد ولد لك غلام، فأته وانظر إليه، فأتاه فنظر إليه وحدثته بما رأت حين حملت به، وما قيل لها فيه، وما أمرت به أن تسميه، فأخذه عبد المطلب فدخل به الكعبة، فقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه ثم خرج به إلى أمه، فدفعه إليها والتمس لرسول الله صلى الله عليه وسلم الرضعاء..) 62 صحيح السيرة / صحابة.

وقال: " فاسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر، يقال لها:

حليمة ابنة أبي ذؤيب.. ".

وقال أيضاً: "... حدثني ثور بن يزيد عن خالد بند معدان الكلاعي أن نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا له: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك قال: " نعم.. أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا، نرعى بهما لنا إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيضاء، بطست من ذهب مملوءة ثلجاً، فأخذاني فشقا بطني، واستخرجا قلبي فشقاه، فاستخرجا منه علقة سوداء، فطرحاها، ثم غسلا قلبي، وبطني بذلك، الثلج حتى أنقياه. ثم قال أحدهم لصاحبه: زنه بعشرة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزنني بهم، ثم قال أحدهم لصاحبه: زنه بألف من أمته فوزنني بهم فوزنتهم فقال: دعه عنك فوالله لو وزنته بأمته لوزنها ") 63/صحيح السيرة/ صحابة.

ثم ماتت أمه أيضاً، وهو طفل في السادسة، وتركته فقيرا عائلا وتوفي بعدها بقليل جده عبد المطلب، تاركا إياه في كفالة عمه أبي طالب الذي ضمة لعياله المعوزين ورعاه وحماه، حتى بعثته رسولا نبيا وكان جده عبد المطلب لا يؤمن في دخيلة نفسه كما ذكرنا بعبادة الأصنام التي كانت تملأ الكعبة، ومن المنطقي أن ترك هذا أثراً كبيرا في دخيلة نفس محمد الصبي أيضاً، حيث كان شديد القرب من جده والالتصاق به، كما يروي أيضاً في مناماته أن سيكون لحفيده هذا المحبب إلى قليه شأن عظيم.

يقول ابن إسحاق: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده

عبد المطلب بن هاشم وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له قال: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي - وهو غلام صغير - حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه، ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأي ذلك منهم: دعوا ابنى فو الله إن له لشأنًا ثم يجلس معه على الفراش، ويمسح على ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع) 63 صحيح السيرة / صحابة.

وعلى أية حال فقد كانت عوامل اليتم والفقر والوحدة كلها عوامل مساعدة على تقدم محمد صلى الله عليه وسلم في صباه وشبابه إنسانيًا روحيا عن أقرانه ودعوة له للتفكير في الخلق ومنشئه.

* * *